الفصل التاسع

اليهود في الدول الإسلامية

بين التسامح الإسلامي والتعصب اليهودي :

ينظر الإسلام إلى الأديان الأخرى في تسامح ، وقد جاء في القرآن الكـــريم (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾) ودعا الإسلام الناس مع دعوته إلـــى تكـــوين الأخـــوة الإسلامية إلى أخوة إنسانية عامة شاملة لا فرق معها بين الأمم والعناصـــر والعقائد والمذاهب.

وأين هذه التعاليم الإنسانية النقية الصافية من التقاليد اليهودية التـــي تدعو إلى الغرور العنصري والاستعلاء الجنسي ، وما كان يدعو إليه اليهود من أنهم (شعب الله المختار)، وأن الله اصطفاهم من بين الشعوب ليكونوا حملة الدين الحقيقي، وأن الله اصطفى الشعب العبري ليكون (شعبه) وأنه يقوم برعايته وإرشاده والسهر على مصالحه بينما لم تحظ الشعوب الأخرى بشيء من هذا قط.

خلال فوضي الأديان، قامت الديانة اليهودية التي ظهرت في أطراف آسيا الغربية تحاول نشر نفوذها وتعاليمها في الشرقين الأدنـــى والأوســـط، ولكنها أخفقت من أول الطريق ، لأن الإسرائيليين الـــذين قـــاموا يبـــشرون باليهودية كانوا عبارة عن جمهرة من البشر تعيش حياة البداوة والتـــأخر ،

وليس لهم حضارة تطبع دعوتهم الدينية بطابع يجمع بين الدين والـدنيا ، أو بين العبادة والعلم والشئون الروحانية ، ومتطلبات التمدن كالرفاهية والثروة والتنظيم والعمران ، وما إلى ذلك من المرافق التي لابد منها لتدعيم بنيـان الحياة الراقية المتكاملة. بينما انتشرت حضارات راقية في الهنـد والـصين فضلاً عن الحضارة الرومانية الأوروبية. ومن البديهي أن مطالبته من قوم متحضر بقبول دعوة دينية يدعو إليها جماعة تعيش في عالم مـن الجهـل والبداوة ، أمر مستحيل ، مهما كانت هذه الدعوة.

وأصبحت الديانة اليهودية دين (تشبيهي) أي أنه يعتبـر التنزيـه المطلق للوحدة الإلهية تشبيهي ، وذلك فضلا عن بعض التخيلات الـصوفية الغامضة والمبهمة. وانقسم اليهود إلـى شـعبتين ، همـا (الغـاريزيون Ghariziste) وهؤلاء يعتنقون المذهب الاسرائيلي القائم على الظواهر، و (الكباليون Kappaliste) وهم طبقة المتصوفين من حاخامين وسـواهم ممن أدخلوا السحر والتنجيم وكل أسطورة غربية على كتب العبـادة التـي وضعوا أركانها، وهم يتنكرون لكل ما هو روحي ومعنوي فـي الحيـاة ، ومذهبهم يجاري مبادئ الماويين والقوميين الأنانيين الأشداء، ومعني ذلك أن السعادة والمحبة، والفضيلة والخير عند هذه الفئة ليست إلا عبارة عن مآخذ مادية.

ومن جملة معتقداتهم أن الله فضل بني إسرائيل على كافة الخلـق ، وهو سريع الغضب على من عصاه ، ينتقم منه حتى من ذريته بشدة وعـدم تسامح، فلأجل هذا يخشاه الإسرائيليون ويتملقونه بشتى الترضيات الصوفية النفعية أي أنهم لا ينصرفون إلى عبادته بإيمان مجرد أو استـسلام ودعـة ولهذا نجد أن نوع العبادة لدى هذه الفرقة تشبيهية تتمشى على الوجهات التي

تتشبه لهم بكونها الأصلح لمنافعهم فهي والحالة هذه عبادة استنتاجية مادية تتحري وجود النفع للعبد وتفترض أن المعبود يتمشى مع أهواء المخلوقات ولا توحيد ولا تنزيه لألوهيته.

لم تكن اليهودية إلا عبارة عن عقيدة دنيوية مادية لا تمت إلى تعاليم موسى إلا بصلة الاسم فقط ، فالأنانية وحب الثراء والتنجيم والسحر والاهتمام بالمادة وإضفاء الغموض على يوم الحشر والدينونة تبعد بعد السماء عن الوصايا العشر التي أتى بها موسى[٢٥٤].

كانت اليهودية ديانة محلية قاصرة تحتاج إلى تكملة ، وإلى امتداد ولذلك ظل اليهود زمنا طويلا ينتظرون نبيًا جديدًا إلى أن بعث فيهم المسيح عليه السلام. ظهرت المسيحية في بادئ الأمر في البيئات الإسرائيلية، ولكن التعاليم التي قامت بموجبها تدعو الناس إلى إتباعها كانت تخالف التعاليم اليهودية المحرفة على خط مستقيم ، لأن القواعد الدينية عند اليهود ترتكز على المادة ، أما الديانة المسيحية فتنظر إلى معنويات الحياة المتعلقة مثلا بالعبادة والزهد وفعل الخير نظرة احترام.

أما العقيدة في الإسلام فجاءت تقريرا للحق المطلق في أية صورة من الصور الكونية واعية تماما لحقيقة الإنسان وطبيعته ، مقدرة ما فيه من قوة ومن ضعف ، وما فيه من عقل ومن وجدان ، فربطت بين سلوك الإنسان وإيمانه الصحيح برباط قوي متين ، وبذلك استوعب العقيدة الإسلامية الكمال المطلق بكل معنى من معانيه[٢٥٥].

---

[٢٥٤]) المدور : الديانات والحضارات ص ٢٧.

[٢٥٥]) العقاد : الله ص ١١٠.

أحوال اليهود في الدولتين الفارسية والرومانية :

مر بنا ما كانت العلاقات بين اليهود والدولـــة الرومانيـــة الـــشرقية وكيف قضى الرومان على اليهود في السلم ودمروا معبدهم في أورشليم سنة ٧٠م وكيف خرجوا مشردين إلى جهات متفرقة ، وأنهم حـــين جلـــوا عـــن موطنهم في فلسطين لم يهاجروا إلى مكان واحد، ولم يؤلفوا مجتمعًا واحدًا ، بل تفرقوا في جميع أرجاء العالم المتحضر في أوروبا وآســـيا وأفريقيـــة ، ولكن اليهود في تفرقهم في هذه الأنحاء لم ينسوا أبدًا أنهم يهود فلم يندمجوا في الأقوام الذين عاشوا بينهم ، أنما احتفظوا بعزلتهم وانفصال جماعتهم عن الأوطان التي استقبلتهم ، ولقد أخذ العالم بأسره عليهم هذه الطباع التي تتنافى مع المواطنة الحق ، ومن ثم كانوا دائمًا موضع شك واضطهاد أينما ذهبـــوا بين الأمم المختلفة أثناء العصور المتعاقبة ، وما أحسنت الظن بهم أمة مـــن الأمم وأحسنت إليهم حقبة من الزمن إلا وعادت تنوء من إساءتهم إليها كأقلية غريبة تحرص على غربتها وأنانيتها ولا تهتم بالمـــشاعر العامـــة لـــسائر المواطنين.

كانت أحوال اليهود في عهد البابليين والأشوريين والفـــرس حـــسنة نسبيًا بالمقارنة بحالتهم في الدولة الرومانية فكانوا يشتغلون بالتجارة ويتولون المناصب إلى أن استولى الأسكندر الأكبر على بابـــل ســـنة ٣٣١م فعامـــل اليهود بشدة لمقاومتهم له ، ولكنه سرعان ما تقرب إليهم فانضموا إلى جيشه وكان اليهود أسرع الناس إلى اعتناق النـــصرانية عنـــد ظهورهـــا، وقـــد اضطهدهم أردشير مؤسس الدولة الـــساسانية وســـمح للمجـــوس بتعـــذيبهم والتنكيل بهم ، ولكن سرعان ما استطاع اليهود إرضاء الأكاسرة فتحـــسنت حالتهم نوعًا ما وعاد الاضطهاد في عهد يزدجر الثاني وقبـــاذ الأول إلا أن

انشغال الأكاسرة في أواخر الدولة الساسانية في لَـمِّ شـــملهم شـــغلهم عـــن اضطهاد اليهود.

اليهود في الدولة العربية الإسلامية :

كان اليهود إلى جانب الطوائف غير الإسلامية يطلق علـيهم اسـم (أهل الذمة)، والذمة في اللغة العهد والأمان والضمان ، وأهل الذمة هـم المستوطنون في بلاد الإسلام من غير المسلمين ، وسموا بهذا الاسم لأنهـم دفعوا الجزية فأمنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم، فإن تقاليد الإسلام كانت تقضي بأنه إذا أراد المسلمون غزو إقليم وجب عليهم أن يطلبوا مـن أهله اعتناق الإسلام فمن استجاب منهم طبقت عليهم أحكام المسلمين ومـن امتنع فرضت عليه الجزية كقوله تعالى : (قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾) ولم يكن يتمتع بهذا الامتياز سوى أتباع الملل المعترف بها، وهي المسيحية واليهودية والمجوسية والصابئة والسامرية ، والفرقة الأخيرة، أي السامرية ، من فرق اليهود ، تنقسم إلى عدة طوائف كالربانيين والقرائيين ممن ينكرون مع السامريين أن يكونوا يهودًا لاختلاف التوراة التي بيدهم عمـا فـي يـد الطوائف الأخرى.

تحدث المؤرخ (ترتون) [٢٥٦]. عن اليهود فـي الدولـة العربيـة الإسلامية فقال : أما اليهود فمن العجيب أن المؤلفين المسلمين قلما يشيرون

---

[٢٥٦]) أهل الذمة في الإسلام ص ٩٧.

إليهم ، وقلما يرد ذكرهم في كتب الفقه التي تقصر كلامها في الغالب على النصارى فلا جرم إذا تبادر إلى الذهن أنهم فئة ضئيلة مستضعفة ليست بذات خطر. بيد أن واقع الحال لا يؤيد هذا الفهم وليس له من سند يزكيه ، والدليل على ذلك ما أورده (بنيامين التطيبي) من كثرة مصادقته إياهم أنى ذهب ، وإشارته إلى أن لهم في بعض الأحايين جاليات كبيرة العدد فكانت لهم في الإسكندرية إبان الفتح الإسلامي جالية يتراوح عددها بين أربعين وسبعين ألفا بل الثابت أنه ورد في نصوص الهدنة بين العرب والبيزنطيين نص خاص باليهود يأذن لهم بالإقامة في الإسكندرية أما في فارس فكان اليهود أقل بكثير من النصارى.

تمتع اليهود في الدولة العربية الإسلامية بقسط وافر من الحرية مقابل أداء الجزية والخراج ، وارتبطت بالفعل قضاياهم في الأمور المدنية والجنائية برؤسائهم الروحيين ما دامت لا تمس المسلمين ، أما الشريعة المحمدية فلم تطبق عليهم لأنها لم توضع لهم ، وكان رأس الجالوت يدير شئون اليهود وكان يحكم هذه الطائفة وفقا للعادات الخاصة القديمة[٢٥٧]. وكان البستاني هو أول رأس جالوت تولى شئون اليهود في العهد الإسلامي وهو الذي أعاد مجد رياسة الجالوت بعد زواله وبقي هذا المنصب في أعقابه يتوارثه الخلف عن السلف عهدًا طويلاً ، وقام البستاني هذا بخدمات جليلة للمسلمين مما كان موضع تقدير عمر بن الخطاب ورضائه فأوصى بحسن معاملة اليهود[٢٥٨].

---

[٢٥٧]) ديمومبين : النظم الإسلامية ص ١١٦.

[٢٥٨]) يوسف رزق الله : نزهة المشتاق ص ١٠١.

كان الرسول ﷺ متسامحًا كل التسامح مع اليهود ، ولنضرب مـثلا واحدًا من أمثلة عديدة لتسامحه : كان من بين الغنائم التي غنمها المـسلمون في موقعة خيبر صحائف متعددة من التوراة ، فلما جاء اليهود يطلبونها أمر الرسول بتسليمها لهم ، فأخذ اليهود يشيرون إلى الرسول بالبنان معتـرفين بفضله ، وعلق ، (إسرائيل ولفنسون. في كتابه : تاريخ اليهود فـي بـلاد العرب) على هذا الحادث فقال : لم يتعرض النبي لصحف اليهود المقدسة ، بينما أحرق الرومان بعد فتحهم أورشليم سنه ٧٠م الكتب المقدسة وداسـوها بالأقدام وأحرق الأسبان المتعصبون صحف التوراة، فهناك فرق شاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الإسلام. فقد صـالحهم الرسـول سـنة ١٠هـ على الفيئ.

تمتع أهل الذمة ، يهود ونصارى بالحرية الدينية في ظـل الحكـم العربي الإسلامي العادل فقد تركهم العرب المسلمون يدينون بمـا رضـوا لأنفسهم من دين على أن يدفعوا الجزية للحكومة. ففي فارس ، عامل العرب من ظل من الفرس على مذهبه القديم معاملة حسنة ولم يتعرضـوا لأمـاكن عبادتهم ، وفي بلاد الشام ومصر ، خير العرب أهل الذمـة بـين الإسـلام والبقاء على دينهم ، فمن أسلم منهم تمتع بما يتمتع به المسلمون ومن بقـي على دينه فرضت عليه الجزية مقابل حمايته وتأمينه على نفسه وعلى أمواله وأولاده. كما أحسن العرب معاملة أهل الذمة في بلاد الأنـدلس، فـسمحوا لليهود الذين ذاقوا كثيرا من ألوان العسف والاضطهاد فـي عهـد القـوط بمزاولة التجارة وأمنوهم على أنفسهم وأولادهم ، وأموالهم ، وأحسنوا معاملة المسيحيين الذين ظلوا على دينهم.

وأشاد (ترتون) بتسامح المسلمين مع اليهود ، فقال : وتدلنا القصة التالية على عدم ازدراء المسلمين للذميين ، وذلك أن يعقوب بن اسحق الكندي لم تمنعه يهوديته من أن يكون أبرز فلاسفة عصره ، وطبيب دهره ، وأدنى الناس منزلة إلى المأمون. وحدث أن جاء ذات يوم إلى حضرته وجلس مجلسا فوق أحد كبار المسلمين الذي قال له : لم تجلس وأنت اليهودي فوق ما يجلس علماء الملة ؟ فإجابة يعقوب : لأنني أعرف ما تعرف ولكنك لا تعرف ما أعرف.

اليهود في المجتمع الإسلامي :

عاش اليهود بين أفراد المجتمع الإسلامي في أمان واطمئنان ، واحترفوا عددًا كبيرًا من الحرف ، وتولوا كثيرًا من الوظائف الهامة. كما اشتغل كثيرون من اليهود بفلاحة الأرض، فقد ترك عمر بن الخطاب أرضهم لهم مقابل دفعهم الخراج فضلا عن الجزية. ومنذ هاجر اليهود من جنوب الجزيرة العربية نزلوا في الكوفة واشتغل بعضهم بالزراعة واشتغل البعض الأخر في سائر الحرف. وقد امتنع يهود الحيرة ، وهي على أطراف العراق ، من أن يتنقلوا إلى الكوفة عند إنشائها ، حتى وجدوا من سبقهم في الهجرة قد حازوا الثراء ، فأسرعوا يهاجرون إليها سنة ٢٠هـ[٢٥٩].

واحترف عدد كبر من اليهود الصباغة ونسج الحرير وصناعة الزجاج وإدارة السفن [٢٦٠]، وكان الصناع وأصحاب الحرف وأهل الطبقة العاملة من اليهود أسرع الناس إلى الإسلام ، فقد اعتنقه عدد عظيم في

---

[٢٥٩]) يوسف رزق الله : نزهة المشتاق ص ١٠٣.

[٢٦٠]) ترتون : أهل الذمة في الإسلام ص ٢٠٥.

حماسة كبيرة[٢٦١]. كما عمل اليهـود بالتجـارة ، واشـتغلوا بالـصناعة ، واحترفوا الطب ، فقد كان للحجاج بن يوسـف الثقفـي ، مـثلا ، طبيبـان يهوديان[٢٦٢]. واشتغل اليهود بشتى أنواع التجارة ، كما اتـصلوا بـالملوك لاشتغالهم بصنع المجوهرات وبيعها.

وكان يهود بيت المقدس يحتكرون تجارة الأصباغ في المدينة ، فقد استأجروا معملاً من الملك عموري الأول ، وانحصرت هذه المهنـة فـيهم وأقاموا في حى مجاور لبرج داود ، كما احتكروا في الأندلس حرفة خصي الرقية الصقالبة[٢٦٣].

وعن التجارة اليهودية فالأوروبيين معـروفين تمامـا فـي الـبلاد الإسلامية ،وكانوا يتحدثون باللغات العربية الفارسية واليونانية والفرنـسية والأسبانية والروسية، ويتنقلون من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق برًا وبحرًا ، فتراهم يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج والجلود والخز والفراء والسيوف ويبدءون سفرهم عادة من بـلاد الفرنجة ، وميممون شطر الفرما ، ثم يسافرون برا حاملين تجارتهم علـى ظهور الإبل إلى القلزم ، ثم إلى جدة ، فالهند فالصين ، ومن هناك يحملون المسك والعود الدرصيني والكافور ، وغير دلك مما يحمل من تلك النواحي من فرنسا إلى أنطاكية ، ثم يسافرون برًا إلى الفرات وبغداد ، ثم يرحلـون في نهر دجلة إلى الأبلة وعمان والهند والصين[٢٦٤].

---

[٢٦١]) ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢.

[٢٦٢]) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٤.

[٢٦٣]) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٧٥.

[٢٦٤]) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ١٥٣.

كان يتولى شئون اليهود رئيس ديني يـــسمى (رأس الجـــالوت)، ونستطيع بدراسة تاريخ أحد هؤلاء الرؤساء معرفة نفـــوذ صـــاحب هـــذه الوظيفة.

اليهود في العصر العباسي :

تحدث المؤرخ العربي المسيحي المعاصر الدكتور متى عن اليهـــود في العصر العباسي ، فقال أن اليهود كانوا يعيشون حياة تسامح واطمئنـــان في أرجاء الدولة العباسية. وذكر (المقدسي) أن معظم الصيارفة وأصحاب المصارف في الشام كانوا من اليهود، وولى الخليفة المعتـــضد كثيـــرًا مـــن اليهود المناصب الكبرى وكان لليهود في بغداد مستعمرة كبيرة ظلت قائمـــة حتى سقطت المدينة في أيدي المغول. وقد وجد (بنيامين التطيلى) الـــذي زار المستعمرة سنة ١١٧٠م أن بها عشر مدارس ربانية وثلاثة وعـــشرين كنيسة (معبدًا) لليهود ، وكان المعبد الرئيسي مبنيًـــا بالرخـــام المختلـــف الألوان ومزدانا بزينة غالية من الذهب والفضة.

أدى انتشار اللغة العربية بين اليهود إلى ترجمة التوراة إلـــى اللغـــة العربية ، ففي عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد قام أحمد بن عبد الله ابن سلام بترجمة التوراة إلى العربية ، كما اهتم الخليفـــة العباســـي المتوكـــل بترجمة التوراة مرة أخرى إلى اللغة العربية ، وكان هذا الخليفـــة معروفًـــا بالتسامح، وكثيرا ما عقد المجالس التي تدور فيها بعض المناقشات والأبحاث الدينية وتتناول الأديان الثلاثة ، وأتاحت هذه الترجمة للمسلمين والمسيحيين فرصة الاطلاع على التوراة.

في العصر العباسي ، كان يتولي شئون اليهود رئيس يدعى (عـين الجالوت)، ومن أشهر من تولوا هذه المناصب (دانيال بـن حـسدان) ، وكان يشغل أيضًا وظيفة قاضي اليهود عامة ، ويسميه المسلمون (سيدنا ابن داود) ويسميه اليهود (سيدنا رأس الجالوت)، وهو يسيطر علـى جميـع اليهود في البلاد الخاضعة للخليفة، وكان الجميع يحترمونه ، فكان المسلمون واليهود على السواء يقفون إجلالاً له إذا كانوا بحضرته ومن لم يقـف لـه ضرب مائة سوط ، وكان يذهب للقاء الخليفة مساء كل خمـيس ، وإذ ذاك يصيح أمامه الفرسان من اليهود والمسلمين أفسحوا الطريـق لـسيدنا ابـن داود ، وكان دخله من الضرائب المفروضة علـى اليهـود مـائتي ألـف دينار[٢٦٥].

وكان يطلق أحيانا على (رئيس الجالوت) لقب (ملك) ويدفع لـه أهل ملته الضرائب فيأخذ نصفها ويرسل النصف الأخر إلى بيـت المـال ، بينما كان المسلمون والمسيحيون يؤدون الضرائب لبيت المال مباشرة وامتد نفوذ (رئيس الجالوت) على اليهود المقيمين في البلاد الواقعة في شـرقي الفرات ، وبلغ عدد يهود بلاد العراق وحدها ستمائة ألف.

وأمدنا المؤرخ (آدم متز) [٢٦٦] بإحصائية عن عـدد اليهـود فـي الأقطار الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، فذكر أنه كان في دمشق ثلاثة آلاف يهودي ، وكان في جزيرة ابن عمر أربعـة آلاف يهـودي ، وفـي الموصل سبعة آلاف ، وفي مدينة (حربة) بأقصى الشمال فـي العـراق خمسة عشر ألفا، وفي عكبرى وواسط عشرة آلاف. وكان المدن التي بهـا

---

[٢٦٥] المسعودى : التنبيه والإشراف ص ١١٣.

[٢٦٦] الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري جـ١ ص ٦٤-٦٥.

يهود كثيرون على الفرات هي مدينة الحلة وكان بها عشرة آلاف ، والكوفة وبها سبعة آلاف ، والبصرة وبها ألفان ، وعاش في همذان ثلاثـــون ألـــف يهودي ، وفي أصفهان خمسة عشر ألفا ، وبشيراز عشرة آلاف ، وبسمرقند ثلاثون ألفا.

ويقارن (آدم متز) [٢٦٧] بين تسامح المسلمين ، الذي بدا في صورة سماح المسلمين لهذه الأعداد الكبيرة من اليهود لتعيش في المجتمع الإسلامي في حرية تامة ، وبين تعصب الصليبيين الذين غزوا بلاد الشام ، فقال : "إن السياسة التي جرى عليها قواد الصليبيين في الشام في القرن الرابع الهجري إزاء اليهود كادت تفنى الطائفة الإسرائيلية ، ويقدر بنيامين عدد سكان الحي الخاص باليهود في القدس بأربعة أنفس ، ولم يكن في صور إلا تسعة مـــن شبان اليهود ".

اليهود في بلاد الأندلس الإسلامية :

تمتع اليهود في الأندلس الإسلامية بكثير من مظاهر التسامح الديني الذين لم يظفروا به تحت حكم القوط ، فقد أسند إليهم كثيـــر مـــن مناصـــب الدولة. وأصبحت بعض الحرف وخاصة الطب مقصورًا علـــيهم ، وغـــدوا عنصرا هامًا في الإدارة والتجارة والثقافـــة ، وأضـــحت قرطبـــة مركـــز الدراسات العبرية كما أصبح كثير من اليهـــود يتحـــدثون باللغـــة العربيـــة الصحيحة ويكتبون بها.

---

[٢٦٧]) المصدر السابق جـــ١ ص٦٤.

وكان لليهود كما كان للمسيحيين ، نظام إداري خاص بهم ، وقد ذكر الإدريسي في كتابه (ضعة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس) أنه كان لليهود مدينة على بعد أربعين ميلاً جنوبي قرطبة وأنهم كانوا " يسكنون بجوف المدينة ولا يداخلهم فيها مسلم البتة ، وأهلها أغنياء مياسير أكثر غنى من اليهود الذين بسائر بلاد المسلمين ".

وليس أدل على ما بلغه اليهود في عهد الأمويين بالأندلس من نفوذ ، من اختيار (حسداي بن شيروط) اليهود لاستقبال سفراء الدول الذين كانوا يفدون على البلاط الأموى ، وقد قام حسداى بدور هام في البعثة التي أوفدها قسطنطين الثاني إمبراطور الدولة البيزنطية إلى عبد الرحمن الناصر. وفي البعثة التي أوفدها إمبراطور ألمانيا ، كما أسند إليه الناصر مهمة دبلوماسية لدى ملكة نافار.

اليهود في مصر الإسلامية :

كان اليهود في مصر أقل عددا من المسلمين والمسيحيين. ويـــذكر بنيامين التطيلي أنه كان لليهود زمن الفتح الإسلامي لمصر جاليات كبيـــرة العدد ، فكان لهم في الإسكندرية جالية يترواح عددها بـــين أربعـــين ألفـــا وسبعين ألفا ، بل الثابت أنه ورد في نصوص الهدنة بين العرب والبيزنطيين نص خاص باليهود والتزود بالحضارة العربية التي كانت أرقى كثيرًا مـــن حضارتهم التي كانوا عليها وقت الفتح العربي.

لقي أهل الذمة في مصر ، يهـــودًا أو نـــصارى ، معاملـــة طيبـــة متسامحة ، لا يمكن أن تقارن بما كان يعـــاملهم بـــه الأبـــاطرة الرومـــان

المسيحيون. وتعدد المصادر التاريخية ألوان الاضطهاد الذي شهده اليهـود والنصارى في عهد الإمبراطور هرقل، إذ كان المصريون يخـالفون فـي مذهبهم مذهب البيزنطيين. كما تذكر هذه المصادر ما ألحقه كاثوليك أسبانيا بالبروتستانت والمسلمين واليهود على السواء ، ولا تزال ذكـرى محـاكم التفتيش في أسبانيا باقية ما بقي التاريخ.

لم يتدخل المسلمون في شئون اليهود ، وأطلقوا لهم حرية ممارسة عقائدهم الدينية ، كما لم يتدخلوا في أحوالهم المدنية ، وسـمح المـسلمون لليهود ببناء المعابد ، وبالاحتفال بأعيادهم الدينية ، بل كـانوا يـشاركونهم احتفالاتهم. وكان هذا التسامح دافعا لأهل الذمة في مـصر علـى اعتنـاق الإسلام وإتقان اللغة العربية ، والاندماج في المجتمع العربي الإسلامي ،

ووصل كثير من أهل الذمة إلى المناصب الكبـرى فـي الدولـة ، واشتغلوا بجميع الحرف البارزة ، واقتنوا ثروات كبيرة ، وعـاش الـذمي والمسلم في المجتمع جنبًا إلى جنب في سلام وأمان.

أدى تعريب الدواوين إلى انتشار اللغة العربية ، فبدأ أهل الذمة يهودًا ونصارى ، يتخلون عن لغاتهم القديمة ، ويتعلمون اللغة العربية ، وأصـبح المسلم والمسيحي واليهودي يتحدثون بلسان واحد ، ممـا أدى إلـى إذابـة الفروق الاجتماعية وإيجاد نوع من الوحدة الاجتماعية ، والتقارب الفكري ، فاللغة ليست حروفًا جامدة ، بل هي مظهر مـن مظـاهر وحـدة الثقافـة والمشاعر.

في العصر الطولوني ، أقبل بعض اليهود على اعتناق الإسلام ، فقد شهد هذا العصر تحولاً كبيرًا من أهل الذمة إلى العقيدة الإسلامية ، وأثر هذا

التحول في الحياة الاجتماعية في مصر ، وترك آثاره المختلفة في العادات والتقاليد والأعياد والأزياء. وبدأت الجزية تختفي كباب من أبواب الإيرادات ، وأخذ المسيحيون واليهود على السواء يشاركون في الحياة الاجتماعية والثقافة العربية.

لم يرتفع صوت واحد من أصوات أهل الذمة بالاحتجاج طول العصر الطولوني ، ولم يهتم الطولونيون بالجزية ، وانصرفوا إلى الخراج ومضاعفته ، باعتبار أن مصر بلد زراعية ، كما عملوا على تنمية الزراعة ونهضتها. وتولى كثير من أهل الذمة الوظائف المالية الكبرى في مصر.

وفي العصر الأخشيدى، عاش اليهود في تسامح تام ، واشتغلوا بالحرف والصناعات التي تدر عليهم أرباحًا طائلة ، وبرز منهم كثير من الصياغ والأطباء والصيارفة ، وكان لليهود محاكمهم الخاصة وأن كان يمكنهم الاحتكام إلى قضاة المسلمين ، ولم يهتم الأخشيديون بتطبيق النظم الخاصة بالأزياء والركوب ، وولوا اليهود بعض الوظائف المالية.

وفي العصر الفاطمي ، نَعِم اليهود والمسيحيون على السواء ، بفترة هدوء ورخاء وتسامح ، بل عومل أهل الذمة في عهود بعض الخلفاء الفاطميين معاملة تتجلى فيها المحاباة ، وتقلدوا أرقي المناسب وأعلاها وبخاصة في عهدي الخليفتين العزيز بالله والمستنصر ، وبعض الخلفاء الآخرين ، فقد تولوا المناصب المالية في الدولة ، بل تقلدوا الوزارة أيضا ، وتمتعوا بقسط وافر من سياسة التسامح الديني وهو أمر نستطيع تبينه من بناء عدد من الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية.

كان يتولى شـئون اليهـود فـي القـاهرة رئـيس دينـي يـسمى (سر هساديم) أي أمير الأمراء، وكان يعين أحبـار اليهـود فـي الـشام ومصر ، أي في حدود الدولة الفاطمية . وذكر (بنيامين) أن عدد اليهـود في القاهرة كان سبعة آلاف ، وفي الإسكندرية ثلاثة آلاف ، وبمدائن الـدلتا نحو ثلاثة آلاف ، وفي الصعيد ستمائة يهودي[٢٦٨].

استعان المعز لدين الله الفاطمي بكثير من الأطباء اليهود ، وما لبث أن عظم نفوذهم في بلاطه ، ومن أشهر رجال المعز (يعقوب بن كلـس) وكان يهوديًا واعتنق الإسلام ، وولى كثيرًا مـن اليهـود فـي المناصـب الكبرى ، ووصل يعقوب إلى الوزارة في عهد الخليفة العزيز بـالله الـذي اشتهر بالتسامح مع اليهود والنصارى على السواء ، فقد كان متزوجا مـن مسيحية وولى العزيز على حكم الشام واليًا يهوديًا هو منـشا بـن إبـراهيم القرار. أما الخليفة الحاكم بأمر الله ، فقد تخللت فترات حكمه فترة نعم فيهـا اليهود بالتسامح ، فقد سمح لهم بتجديد معابدهم ، وأصدر عهدًا لهم يـؤمنهم فيه على أرواحهم وأموالهم وأملاكهم[٢٦٩]. وسمح الخليفة الظـاهر لليهـود بالاحتفال بأعيادهم ولم يطبق قيود الملابس. وتولى الوزارة بالقاهرة منذ عام ٤٣٦هـ إلى ٤٣٩هـ أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحي ، وكان يهوديًا ثم اعتنق الإسلام ، وكان يدير الدولة معه أبو سعد التستري اليهودي[٢٧٠].

واشتهر صلاح الدين الأيوبي بالتسامح والرحمة ، ويذكر المؤرخون أن طبيبه الخاص (الميموني) قد توسط لديه ليسمح لليهود بـالعودة إلـى

---

[٢٦٨]) آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري جـ١ ص ٦٦.

[٢٦٩]) تاريخ يحيي بن سعيد الانطاكي ص ٢٣٢.

[٢٧٠]) السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ص ١١٧.

بلادهم ، فتدفق سيل المهاجرين من بلدان غرب أوروبا إلى فلسطين طوائف عدة تختلف فيما بينها بجنسيتها التي انتمت إليها في الأصل. وكان اليهود قد نزل بهم ألوان كثيرة من الاضطهاد والإفناء خلال الحروب الـصليبية فـي بلاد الشام.

مقارنة بين يهود مصر ويهود أوروبا :

عاش اليهود في مصر في تسامح وتساهل عظيمين ، ولتذكر أحوال اليهود في الدول الأوروبية في العصور الوسطي لنستطيع أن نـوازن بـين معاملة الأوروبيين لليهود ومعاملة العرب لهم ، وكان اليهود يعيـشون فـي أرجاء الدولة الرومانية بين قوم يخالفونهم في الدين ، وكانوا يعيشون فـي عزلة عنهم باختيارهم وأقاموا في أرجاء الدولة مراكز متفرقة للمعـاملات التجارية وشئون الصيرفة ومبادلة السلع والنفوذ ، ولكنها متفقة فيمـا بينهـا على قصد وعلى غير قصد لانعزالها في كل بقعة على حدة، فـإذا سـافر اليهودي من الإسكندرية إلى روما علم قبل سفره أن هناك بيئة مماثلة لبيئته يذهب إليها ليستعين بها على عمله ويشترك معها في استغلال مـن حولـه ،وكان هذا الاستغلال بطبيعته سببًا لنقمة الفقراء والأغنياء في وقت واحد ، فكان اليهود عرضة لغضب المعوزين ، كما كانا عرضة لغضب المـدينين وأصحاب المحصولات الزراعية من الضياع الواسعة وبخاصة فـي إبـان الأزمات والحروب الخارجية والأهلية ، وقد كانت تتعاقب بكثرة قبل انهيار الدولة الرومانية.

وكلما كثرت الحروب وضح لأبناء الأمم المختلفة أن هـذا الـشعب المسمى (اليهود) متفق متفاهم على ابتزازهم واستباحة أموالهم وأرزاقهـم

لأنه يعتزلهم كافة بمجتمعه في كل بقعة ، ثم يرتبط بالمعاملة بينه وبين أبنائه في المعسكرات المعادية ، ولا ينظر اليهودي إلى زميله نظرة العداء والمقاطعة ، وإن قطعت الحروب والفتن بين البلدين[٢٧١].

كانت أخلاق اليهود المعروفة لا تسمح لهم بالإقامة المستقرة في العصور الوسطي ، إذ اضطرتهم الإمارات المسيحية إلى الجلاء القهري والهجرة القسرية ، فاتجهوا صوب الشمال الشرقي في أوروبا إلى ألمانيا الشرقية وبوهيميا وخاصة بولندا ، كما أن اليهود الإنجليز قضي عليهم جميعا في سنة ١٢٩٠ بالنفي ، وتبعت إنجلترا في ذلك فرنسا ومن أوروبا الوسطي ودولها ، وبلغ ذلك الإجراء منتهاه أثناء نفيهم المروع من أسبانيا والبرتغال في العقد الأخير من القرن الخامس عشر ولم ينجح من هذه المعاملة الجماعية سوى الجماعات اليهودية الصغيرة في إيطاليا.

يرجع السبب في هذا الإخراج الجماعي لليهود ، من الأوطان المسيحية التي استوطنوها إلى الإحساس بالخطر من اليهود المقيمين باعتبارهم أجانب لا مواطنين لأن الأقليات السورية واليونانية وغيرها التي هاجرت مع اليهود إلى دول أوروبا قد اندمجت في شعوبها قبل القرن الحادي عشر ، ولكن الأقلية اليهودية عاشت في أحياء خاصة بهم ثم أرغمت بعد ذلك على الإقامة بها تجنبًا لشرها ولاختلافها عن الباقين.

رأي المسيحي نتيجة تجربته أن اليهود معول من المعاول الهدامة في بنيان المجتمع من الناحية الاقتصادية والاجتماعية ، وذهب به الخوف منه إلى أن يتصور عنه أبشع التصورات العدائية للدين المسيحي ومعتنقيه. ولم

---

[٢٧١]) المصدر السابق جـ١ ص٦٤.

يكن في ذهن المسيحي وخياله أن يرى ببصره بيـوت المـسيحيين تنهـار دعائمها وتتقوض جدرانها من أثر الربا الفاحش الذي ارتبط باسم اليهـود ، بل أصبح عنوانًا له ، فالدين المسيحي لم يعد له كيان اقتصادي أمام مغـالاة المرابين اليهود في فرض النسب الخيالية لفائدة على قروضهم.

نشبت العصبية بين اليهودية والمسيحية، وترجع جذورها إلى مهـد المسيحية ، وما صادفته من غدر اليهود ، وتبادل الطرفان الـتهم وأعمـال الانتقام ، ووجد الناس في الكنيسة المسيحية معبرًا عما تنطوي عليه نفوسهم من مقت ، فالكنيسة صورت اليهودية تصويرًا كريها.

وعبر (بارلس) عن هذا الشعور فقال : لقد كان معتقدا أن اليهودي يطلب دم المسيحي لأغراض الطقوس الدينيـة ، وأنـه يـسرق الأطفـال المسيحيين، وكان معتقدًا أنه يسمم الآبار وينشر الأمراض ولقد كـان فـي ذاكرة عامة أوروبا أن اليهود يمتصون مجهود البلاد الاقتصادية ويمثلـون الطرف الخبيث الخطر الذي يسعي أبد الدهر لتحطيم المسيحية.

ووصف (سنيكا) موقف اليهود من سكان العالم فقال : إن عـادات هذه الأمة ينتشر أثرها بسرعة حتى أصبح لها مناصرون في كل بلد ، ولـم يتخلف نفوذ اليهود بعد اعتناق الامبراطورية الرومانية المسيحية عما كـان عليه في عهدها الوثني وإنما ازداد نتيجة تركزهم فـي المهـن التجاريـة والمالية. ثم جاءت الفتوحات الإسلامية في الشواطئ الجنوبيـة والـشرقية للبحر المتوسط ، فاحتكر اليهود التجارة في أسواق أفريقية والشام ، هاجروا مختارين إلى المدن التجارية الجديدة التي أنشئت في شـمال أوروبـا فـي القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، كما هاجروا من قبل إلى المدن التجارية في الإمبراطورية الرومانية.